# ثيمة العمر في رباعيات محمد مغربي
## -مقاربة موضوعاتية-

د٠ أحمد ماطر أحمد اليتيمي (*)

**المقدمة**(١) :

الحمد لله على ما أولاه، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد:

فقد ظهر النقد الأدبي تابعا للأدب؛ يرصد ظواهره، ويبين خصائصه، ويكشف خفاياه، متخذا عددا من المناهج والطرق في عرض النصوص، ورصد ظواهرها، وبيان سماتها ومظاهرها، والحكم عليها.

وقد تبنى النقد الأدبي الحديث مناهج متعددة، ساعدته في توسيع دائرة النظر للأعمال الأدبية، وتحليلها وفق قواعد ونظريات متخصصة، أسهمت في تجلية معالمه، وكشف جمالياته.

وجاء المنهج الموضوعاتي ضمن المناهج التي تبحث عن الموضوع أو الفكرة في العمل الأدبي، وتوجد عالما خاصا بالأديب، من خلال متابعة الظواهر الموضوعية داخل النصوص، وإيجاد علائق تربطها ببعضها؛ لتشكل فضاءً موضوعيا مشتركا.

وتعد الرباعيات من الأشكال الشعرية التي لقيت اهتماما من الشعراء –الكلاسيكيين–؛ حيث مثلت عودة إلى أصل الشعر القديم الذي قام على مقطعات قصيرة، تعالج موضوعا واحدا، معتمدة على الإلماح والتكثيف والرمز، ووجدت قبولا

---

(*) أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية – بالمدينة المنورة.

(١) بحث مدعوم من عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية.

لدى بعض الشعراء السعوديين الذين ضمنوا دواوينهم بعض الرباعيات، أو أفردوا دواوين مستقلة لرباعياتهم.

وكان محمد علي مغربي أحد الشعراء السعوديين الذين أصدروا ديوانا خاصا بشعر الرباعيات، ضمَّنه مئتين وتسعا وستين رباعية، بما يعادل ألفا وستة وسبعين بيتا من الشعر، تناول فيها عددا من الموضوعات الوجدانية والاجتماعية والسياسية والدينية.

ومن خلال استقراء النصوص توقف الباحث على نصوص مختلفة في موضوعاتها الدقيقة، إلا أن هناك علائق تربطها ببعضها، وتدور حول موضوع العمر، بمراحله وذكرياته، وأحلامه، وسرعة انقضائه؛ الأمر الذي جعلها موضع اهتمام الباحث، وحرصه على تتبع هذه العلائق التي تشكل عالما خاصا بالشاعر، لتتبلور منه هذه الدراسة، موسومة بـ"ثيمة العمر في رباعيات محمد مغربي– مقاربة موضوعاتية".

وقد لقيت الرباعيات في الشعر السعودي اهتمام بعض الدارسين، إلا أن الباحث لم يقف إلا على دراستين حول أدب محمد مغربي، جاءت الدراسة الأولى بعنوان (محمد علي المغربي وآثاره الأدبية) للباحث محمد علي الحسُّون، تناولت شخصية محمد مغربي وآثاره الأدبية بشكل عام، أما الدراسة الثانية فهي: (الرباعيات في الشعر السعودي، دراسة موضوعية فنية) للباحث وليد الحازمي، وهي دراسة عامة للرباعيات في الشعر السعودي لدى الشعراء السعوديين، وإن تقاطعت الدراستان مع هذا البحث في شخصية الأديب ورباعياته، إلا أنه اختلف عنهما في موضوع الدراسة ومنهجها.

ومن خلال استقراء النصوص المتعلقة بالعمر بوصفه ثيمة تشكَّلت من موضوعات متعددة، فقد جاءت الدراسة في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، مذيلة بفهارس فنية، على النحو الآتي:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع والدراسات السابقة وخطة الدراسة ومنهجها.

التمهيد: وضم عرضا موجزا لمفهوم الثيمة في المنهج الموضوعاتي، ومفهوم الرباعيات، وترجمة موجزة للشاعر محمد علي مغربي.

وجاءت مباحث الدراسة راصدة الموضوعات المشتركة التي شكلت فضاء العمر في رباعيات المغربي، فتناول المبحث الأول مرحلة الشباب والمشيب بوصفهما عنصرا رئيسا من عناصر العمر لدى المغربي، وتطرق المبحث الثاني للزمن وسرعة انقضائه، وكيفية توظيفه لخدمة موضوع العمر، واعتمد المبحث الثالث على الحكمة باعتبارها موضوعا عمد إليه الشاعر في نقل تجاربه وخبراته التي مرت به في مراحل حياته، فيما ضم المبحث الرابع بعض المظاهر الفنية الواردة في نماذج الدراسة كالتكرار والتناص، تلتها خاتمة تضمنت أهم نتائج الدراسة.

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الموضوعاتي في استقراء النصوص، وتحليلها، وإيجاد العلائق والوشائج بين النصوص التي شكَّلت من العمر فضاءً موضوعيا للشاعر، واكتفيت بذكر موضع الشواهد في الأبيات دون ذكر الرباعية كاملة؛ للتركيز على موضع الشاهد، وتجنب التكرار والحشو.

* *

## التمهيد

### أولًا: مفهوم الثيمة / الموضوعاتية:

يعد المنهج الموضوعاتي أحد المناهج النقدية الحديثة التي تسعى لرصد الموضوعات الرئيسة في العمل الأدبي؛ من خلال تتبعها ورصد مظاهرها، وتأليف جزئياتها التي تشكل موضوعا رئيسا في العمل الأدبي.

وقد تلقى النقاد العرب هذا المنهج من النقد الغربي، وقاموا بتوظيفه وتطبيقه في الدراسات الأدبية العربية، وتقريب المفاهيم لتتسق وروح الثقافة العربية، وسعوا إلى تطويره وتطبيقه على الإبداع العربي، حتى أصبح النقد الموضوعاتي أحد المناهج النقدية المتبعة في النقد العربي المعاصر(١).

وتأتي المقاربة الموضوعاتية لتسلط الضوء على جزئيات الموضوع التي تتظافر لتشكَّل فضاء موضوعيا واحدا، يرتبط بعمل المبدع الأدبي، وتسعى إلى تتبع الدلالة التي تمثل عنصر الربط بين جزئيات الموضوع الواحد، فالموضوعاتية "دراسة لجانب الدلالة في السرد أو الشعر. ومع أن النقاد الموضوعاتيين أثاروا كثيرا من القضايا الجمالية والشكلية، إلا أن تتبع الوحدات الدلالية يبقى هو الهاجس الرئيسي في كل نقد يعتمد ملاحقة الثيمات في النص"(٢).

وقد رام بعض النقاد العرب إلى توصيف العلاقة بين الموضوعات في الحقل الموضوعاتي؛ حين وُصفت الموضوعات بأنها "أنهار تلتقي عندها سواقي الأفكار. وفي مجاري الأنهار تحت المياه الجارية تتحرك الأنواء الفرعية بما يشكل تيارا

---

(١) ينظر: المنهج الموضوعي في النقد الأدبي، محمد عزام، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩م، ص٧٦.

(٢) سحر الموضوع عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر، د. حميد لحمداني، مطبعة آنفو، فاس –المغرب، ط٢، ٢٠١٤م، ص٥٣.

قويا"[١]، كما ظهرت الموضوعاتية في الدرس النقدي بصفتها منهجا نقديا يبحث عن النقاط الأساسية التي يتكون منها العمل الأدبي[٢].

وقد تداخلت المفاهيم بين المنهج الموضوعي والمنهج الموضوعاتي في بعض الدراسات، إلا أن بعض الباحثين ركز على بعض الفوارق التي تميز المنهج الموضوعاتي في كونه يبحث في الموضوع أو الثيمة التي تشكِّل الكاتب لا شعوريا، وتظهر في كتاباته، وتتوارى خلف أساليبه، أما المنهج الموضوعي فهو منهج متعلق بدراسة النص من داخله، غير متأثر بأي مؤثرات خارجية[٣].

ويبرز المنهج الموضوعاتي في إيجاد العلائق وتوحيد الجزئيات المكونة للثيمة أو الموضوع من خلال أفكار المبدع المترددة في نتاجه، والمسيطرة على رؤاه وتأملاته، والمتوارية أحيانا خلف قناع موضوعات متفرقة، إلى جانب ترددها في ألفاظه وتركيباته.

ولعل (الاطّرادية) إحدى أهم السمات التي تكوِّن الفضاء الموضوعي للمبدع، وهي سمة أشار إليها (ريشار) في تنظيره للمنهج الموضوعاتي حين جعل هوس التكرار يدل على حيازة الموضوعات على فكر المبدع، وأن الموضوعات الكبرى هي التي تشكل المعمارية غير المرئية للعمل الأدبي[٤]، وهو اطراد لا يقف عند الألفاظ والمعاني فحسب، بل يتعدى ذلك إلى الأفكار والأساليب وفلسفة البناء اللغوي.

وكان (جان بول ويبر) من أوائل من استخدم مصطلح الموضوعاتي أو الثيمي في الدراسات النقدية، وأطلق هذا المصطلح على الخصائص المهيمنة على أسلوب

---

(١) المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق، عبدالكريم حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص١٢٠.

(٢) ينظر: النقد الموضوعاتي، سعيد علوش، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ط١، ١٩٨٩م، ص١٢.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص١٦٥.

(٤) المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق، عبدالكريم حسن، ص٤١.

الأديب؛ فجاء لفظ (ثيمة) مشتقا من المعجم الفرنسي من كلمة ( **Theme** ) وتحمل عدة معان من أبرزها: الفكرة الأساسية، والعنوان، والبؤرة، والرمز، والنواة الدلالية، وغيرها(١)، ويبرز فيها رصد الأفكار والموضوعات التي تتشكل منها الأفكار الرئيسية؛ من خلال استقراء النصوص وتحليلها، وإبراز مظاهر الاتفاق في المعجم اللفظي والحقول الدلالية.

كما أن المنهج الموضوعاتي يروم تشكيل صورة عامة للوحدة العضوية في أعمال المبدع الواحد، ويجمع شتات الجزئيات الموضوعية التي تكِّون الثيمات ويضعها ضمن نسق واحد، معتمدا بذلك على التحليل المنطقي، والتأويل الدلالي لرصد مظاهر البناء(٢).

إن تحديد الموضوعات الرئيسة في العمل الأدبي يشكل معماره اللامرئي، ويقوم بترتيبه وتنظيمه، ويأتي تكرار هذه الموضوعات أو جزئياتها دالا على استحواذها على أفكار الأديب؛ وبالتالي فإن هذا التكرار يأتي بمثابة التنويع الذي يحيل العمل الأدبي إلى بناء منسجم في أصله، متنوع في طرقه وأساليبه(٣).

والمتأمل في شعر محمد مغربي يلحظ حضور (العمر) بوصفه موضوعا شاملا تدور حوله بعض الأفكار والرؤى، فتظهر تارة بصورة جلية، وتحتجب تارة خلف موضوعات وأفكار أخرى، إلا أنها تتعاضد في بعض جزئياتها، لتشكل موضوعا واحدا استحوذ على فكر الشاعر، وانعكس على إبداعه.

---

(١) ينظر: المقاربة النقدية الموضوعاتية، د. جميل حمداوي، دار الألوكة، ص٤ ، وينظر: ثيمة الموت في القصة الشعرية العربية مقاربة موضوعاتية، نسيمة زمالي، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، ع ٤٤، ٢٠١٨م، ص١٥٨.

(٢) ينظر: سحر الموضوع، د. حميد لحمداني، ص٥٣.

(٣) ينظر: النقد الأدبي، جيروم روجي، ترجمة شكير نصر الدين، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠١٣م، ص٨٠.

ومن هنا فقد جاءت هذه الدراسة محاولة رصد الموضوعات الرئيسة التي تشكلت منها ثيمة العمر في رباعيات محمد مغربي، ومدى ارتباطها وتداخلها لتشكل بدورها فضاء رحبا للشاعر، يهيمن على أفكاره ومعانيه، ويرتبط بمشاعره وأحاسيسه.

**ثانيًا: الرباعيات، مفهومها ونشأتها:**

لقد نشأ الشعر العربي على شكل مقطوعات شعرية تمثل عددا يسيرا من الأبيات، ينظمها الشاعر في موضوع موجز، وتتسم بوحدة الشعور، والبساطة، والبعد عن التكلف؛ لتنقل تجربة الشاعر بأقرب صورها ومقاصدها.

وقد جاءت الرباعيات في شكل من أشكال المقطوعة الشعرية؛ حيث يمكن تعريفها بأنها "مقطوعة شعرية من أربعة أبيات، تدور حول موضوع محدد، وتكوِّن فكرة تامة"(١)، وهي من حيث شكلها ومضمونها تعود بالشكل الشعري إلى أصوله القديمة المتمثلة في المقطعات الشعرية.

وقد وردت بعض التعريفات لمصطلح الرباعية وتبلورت في كونها مقطوعة شعرية تتكون من أربعة أشطر(٢)، وهي بذلك متداخلة في مفهومها مع الدوبيت من حيث بناؤها على أربعة أشطر.إلا أن ما استقر عليه النقاد بعد ذلك، ودارت حوله الدراسات النقدية، هو اعتماد الرباعية في بنائها على أربعة أبيات، متفقة في الوزن والقافية، وتعالج موضوعا واحد؛ معتمدة على الإيجاز والتكثيف، والرمز، وغيرها من السمات مما يناسب حجمها، والأفكار المبثوثة بين ثناياها.

ومن هنا تقوم الرباعيات على ركنين رئيسين هما الإيجاز والتكثيف؛ حيث يعمد الشاعر إلى توظيف اللغة الإيحائية الرمزية التي تحمل عددا من المعاني والدلالات في سياقها الخاص، وتشكِّل صورا شعرية متنوعة من خلال مقطوعة شعرية

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، مجموعة من الباحثين، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، ص١١/١١٨.

(٢) ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص١٧٤.

قصيرة؛ولهذا فالرباعيات من الأشكال الشعرية التي تتطلب شاعرًا متمرسا، متمكنا من أدواته الفنية؛ بحيث يستطيع بناء رباعيته بصورة فنية يجعلها قائمة بذاتها، مكتفية بعناصرها وسماتها.

وعلى الرغم من محدودية الرباعية من حيث الشكل واقتصارها على أربعة أبيات، إلا أنها تتسم برحابة الأفق، الذي تكوِّنه لغة إيحائية رمزية، وصورة شعرية مكثفة، وتحكم بناءه رؤية شعرية، وقدرة فنية اتسم بها شعراء الرباعيات.

ولعل أصالة هذا الشكل الشعري الذي برز في العصور المتقدمة على هيئة المقطَّعات، واستمر في مختلف العصور الأدبية، قد ظهر مجددا لدى الشعراء المعاصرين في مشاركاتهم الأدبية التي احتضنتها الصحافة، وواكبوا بها قضايا عصرهم، وصولا إلى مواكبة التحول الرقمي الذي فرض على الشعراء العودة إلى المقطعات من خلال بعض الحقول الإلكترونية حين فرضت القيود على روَّادها فاضطرت الشعراء إلى الاكتفاء بالمقطوعات الشعرية القصيرة.

والمتأمل في الشعر السعودي يجد حضور الرباعيات في نتاج شعرائه؛ فقد برزت الرباعيات ضمن نتاج الشعراء في دواوينهم مع سائر قصائدهم، أو من خلال إفرادها بدواوين مستقلة[1]، في مثل رباعيات طاهر زمخشري، ومحمد حسن فقي، ومحمد علي مغربي الذي جمع رباعياته في ديوان شعري مستقل بعد أن قام بنشرها في الصحف المحلية على امتداد عدد من السنوات.

وقد جاءت رباعيات محمد مغربي وفق هذا المفهوم الذي استقر عند الشعراء والنقاد، وضم ديوانه (رباعيات) ٢٦٩ رباعية، أي ما يعادل ١٠٧٦ بيتا من الشعر، وردت في عدد من الموضوعات الوجدانية، والاجتماعية، والدينية، والسياسية، موشحة بتجربة كبيرة أسهمت في ثرائها.

---

(١) الرباعيات في الشعر السعودي دراسة موضوعية فنية، وليد بن خالد الحازمي، دار جامعة الملك سعود للنشر، ١٤٣٥هـ، ص١٣.

**ثالثًا: ترجمة الشاعر محمد مغربي[1]:**

هو محمد بن علي مغربي، ولد في مدينة جدة عام ١٣٣٣هـ، ونشأ فيها، وبعد أن تلقى تعليمه تولى بعض الأعمال الحكومية، حيث عمل في إدارة البريد، ورئاسة مجلس إدارة شركة مصحف مكة المكرمة، ثم عمل في الصحافة، وتولى رئاسة تحرير صحيفة (صوت الحجاز) سنة ١٣٦٠هـ-١٩٤١م.

كان محمد مغربي مولعا بالبحث والتأليف؛ حيث ألَّف عددا من الكتب التاريخية مثل: ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة، وتاريخ الدولة الأموية، كما كتب في السيرة النبوية، وله كتب في التراجم مثل: أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة.

كما كان المغربي شاعرا، أصدر ديوانا للرباعيات، جمعها من خلال ما نشره في الصحف السعودية على مدار سبع سنوات، وهو في رباعياته أقرب للنظم؛ بسبب حرصه على الخطابية والتقريرية في أشعاره، وحمله هم إيصال المضمون والتأثير في المتلقي، مما جعله يبتعد في كثير من نظمه عن روح الشعر في مجازاته وصوره وخياله.

ويعد المغربي من رواد القصة القصيرة في تاريخ الأدب السعودي، ومن طليعة الأدباء الذين أصدروا أعمالا روائية؛ حيث نشر رواية بعنوان (البعث) عدها النقاد من النماذج الجيدة في مرحلة بداية الرواية السعودية، كما كانت له مشاركات مقالية في الصحف السعودية، طرق فيها عددا من الموضوعات السياسية والاجتماعية والأدبية.

توفي محمد مغربي في مدينة جدة سنة ١٤١٧هـ، وهو في منتصف العقد التاسع من عمره، وترك خلفه إرثا علميا وأدبيا متنوعا.

---

(١) ينظر: قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية، إعداد دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٣٥هـ، ص١٥٨٤/٣، وينظر: موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث، مجموعة من الباحثين، دار المفردات للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ص١٧١/٩.

## المبحث الأول:

## ثنائية الشباب والمشيب

يتجلى الحديث عن العمر وعن مراحله المختلفة في رباعيات المغربي، وقد ورد حاملا في طياته تأملات تمخضت عن رؤية الشاعر للحياة، ومعايشته للأحداث، وأسهمت في تشكيل تجربته الشعرية، وإثراء الفضاء الموضوعي الذي تدور في فلكه تلك المضامين.

وإذا كان العمر أحد الموضوعات التي برزت في رباعيات المغربي، فإن المتأمل يجد تجلياته في عدد من الموضوعات الفرعية التي تشكل عناصر الموضوع العام (العمر)؛ ومن ذلك حديثه عن مرحلة الشباب وقوتها، ومواطن الذكريات، والأمل الملقى على فورة الشباب وعزيمته، وهو إلى جانب ذلك يُكبر من شأن المشيب وتهذيبه للنفس، وإثراء التجارب، وصناعة الحكمة.

ومن هنا يرى المتأمل في هذه الموضوعات تضافرها وتعاضدها لتسهم في بناء جانب من ثيمة العمر في رباعيات المغربي، إلى جانب عدد من الموضوعات كما سيظهر لاحقا.

**أولا: مرحلة الشباب:**

شكلت مرحلة الشباب عنصرا رئيسا من عناصر ثيمة العمر لدى الشعراء، وقد بدت ظاهرة في رباعيات المغربي من خلال اعتماده على استدعاء ذكريات الشباب، ومواطنها، والتأمل في خصائص هذه المرحلة المفعمة بالقوة والنشاط، والتي تمثل بداية حقيقية للانطلاق في سبيل تحقيق الأهداف التي ينشدها المرء، ويسعى لتحقيقها.

ويجد المغربي في ذكريات الشباب ملجأ يأوي إليه، ويستعرض في ذاكرته أصدقاء تلك الأيام، والمواقف التي صنعوها معا، وكيف تبدلت به الحال فأصبح وحيدا من بعدهم، فاستعاض عنهم بصحبة الكتب قراءة وتدوينا[1]:

**ذِكرَياتُ الشَّبابِ طافَتْ بذِهني بعدما ضاعَ مِن حياتي الشَّبابُ**
**الرِّفاقُ الكِرامُ غابوا عن العَيـ ـنِ كما غَيَّبَ النُّجومَ السَّحابُ**
**والمغاني التي أَلِفتُ تَنَاءَتْ بَعُدَ العَهدُ مُذْ مَضَى الأحبابُ**
**صَارت الكُتبُ واليَرَاعُ جَلِيسي وَرَفِيقي إذا دَعاني اغتِرابُ**

الحنين ذاته لأيام الشباب يقود الشاعر لحنينه لمواطن تلك الذكريات، وما ألفه فيها من مواضع[2]:

**وَطَافَتْ بيَ الذِّكرى لِمَهدِ شَبيبَتي وَمَرتَعِ أحلامِي تَلُوحُ وَتَنْثَنِي**
**وَحَنَّ حَنِينِي للحِجازِ وَكَعبَةٍ إليها يُوَلِّي وجهَهُ كُل مُؤمِنِ**
**فَقُلتُ وَقَد ثَارَتْ مَشاعِرُ غُربَتي وَضَجَّ بأضلاعِي أَنِينُ التَّحَنُّنِ**
**نَزَلتُ بِلادَ اللهِ شَرقًا وَمَغرِبًا فَلَمْ أرَ أغلى مِن بِلادي وَمَوطِني**

فها هي ذاكرة المكان تثير الحنين في نفس الشاعر للعودة إلى شبابه، وإلى بداية أحلامه التي كان يرسمها هناك، وتأخذه في الوقت ذاته إلى رحلة اغتراب حين يوقن مُضيَّها، ولا سبيل إلى العودة إليها إلا من خلال ذكرياته التي تعاوده حينا بعد حين.

لقد ظل المغربي في رحلة روحية دائمة نحو الماضي، يعود من خلالها إلى أحلامه التي بناها، وإلى لحظات الشباب التي أفناها، وإلى أماكنه التي مرَّ بها، ليجد فيها نزهة تنأى به عن هموم واقعه، ويشحذ بها همَّته للمضي قدما دون توقف.

---

(١) رباعيات محمد علي مغربي، مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم)، جدة، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، ص٢٢.

(٢) رباعيات محمد علي مغربي، ص٧١.

ولم يكن (الزمكان) وحده الذي يحمل الشاعر إلى ماضيه واستذكار شبابه، فقد ارتبط بمرحلة الشبابمن خلال متنفسه وإبداعه، فنراه يعود إلى شبابه لإحداث مقارنة حول تجربته الشعرية في مراحله العمرية، فبعد أن كان في شبابه يسعى حثيثا إلى الشعر فيصد عنه ولا يواتيه، ها هو في مشيبه يصد عن الشعر فيجد الشعر يطلب وصاله، ويسقيه من مناهله، بعد أن اكتسب تجربة طويلة تمكن من خلالها من امتلاك أدوات فنية أسهمت في إثراء موهبته، واتقاد شاعريته[1]:

**مالـي وَلِلشِّعـرِ تُضنِيني نَوازِعُـــهُ وَتَحجبُ النَّومَ عن عَينِي وتضوِيني**
**مالـي وللشِّعرِ أشجانًا أُكابِدُهـــا كأنَّهـا وَهَـجٌ بالشَّـوقِ تَكوِينـي**
**قَد كُنتُ والعُمرُ غَضٌّ والشَّبابُ هَوىً أُجاذِبُ الشِّعـرَ أردانًا فَيَلوِينـــي**
**واليَومَ أمضِي بَعِيدًا عــن مَناهِلِهِ فَيستَقيـمُ على دَربـي وَيَسقِينـي**

وإذا تجاوزنا حديث الشاعر عن شبابه وارتباطه به من خلال ذكرياته وأحلامه؛ فإنا نجده يعود إلى تلك المرحلة عبر واقعه الذي يتماهى معه؛ حيث يصف واقعه الذي آل إليه عقب انقضاء الشباب وأيامه، وكيف انتقل من صحبة أصدقائه إلى صحبة الكتب، وهي فكرة تكررت معه في مواضع متعددة من ديوانه؛ وكأنه يؤكد أن في صحبة الكتب عوضا عن البشر، أو أنه وجد فيها كل ما فقده بغياب أصدقائه[2]:

**بَعـدَ ما وَلَّـى شَبابِي وَمَضَى جُلُّ صِحابِي**
**صِرتُ للكُتْبِ أخا رفـ ـقة صِدقٍ لا تُحابِي**
**أقـرأُ التَّارِيـــخَ دُنيـا مِثلَ حُلْمٍ أو سَـرابِ**
**عِبرةٌ فيهـا دُرُوسٌ لَو جَنَحنا للصَّـوابِ**

(١) المصدر السابق، ص٩٦.

(٢) رباعيات محمد علي مغربي، ص١٠.

إن مرحلة الشباب كما يراها الشاعر ليست للدعة والراحة، بل هي بداية رحلة جد وكفاح يصنع المرء فيها مستقبله، ويبني فيها صرحا يراه مكتملا عند مشيبه[1]:

**شَبابُكَ كَنــزٌ فاغْتَنِمــهُ غِنــاءَ ... وَوقْتُكَ عُمرٌ لا تُضِعــهُ هَباءَ**
**وَلا تَقضِ أيَّامَ الشَّبــابِ تَبَلُّــدا ... وَزِنها بِما تَرقَــى بِهِ العَليــاءَ**
**وَخُذْ مِنْ شَبابِ العُمرِ للشَّيبِ عِدَّةً ... فإنَّكَ تَلقَى ما صَنَعتَ جَــزاءَ**
**فإنَّ الأُلى جَدُّوا أفَادوا بِجِدِّهِــمْ ... وإنَّ الأُلى عَاثُوا غَدَوا غُرَباءَ**

وتتكرر هذه الرؤية في رباعية أخرى، يكرس فيها فكرة استثمار الشباب وفورته في بناء الذات، والنهوض من أجل تحقيق الأهداف المنشودة؛ حتى لا يذهب العمر سدى[2]:

**لا تَقُلْ لي ذَهَبَ العُمــرُ سُدَى ... لا تَدَعْ وَقتَكَ يَمضِــي بَدَدا**
**أنتَ إنْ أُوتِيتَ رأيًــا حَسَنًــا ... وَشَبابًا وَطُمُوحًــا وَهُــدَى**
**وَبَذَلتَ الجُهدَ فيمــا تَبتَغــي ... تُدرِكُ النُّجحَ وَلَو طَالَ المَدَى**
**فاشْحَذ العَزمَ وَكافِح جاهِــدًا ... لَيسَ يَرقَــى للعُلا مَن رَقَــدا**

إن حديث المغربي في رباعياته عن مرحلة الشباب هو حديث عن العمر؛ يستعرض به ذكرياته وأحلامه، وينظر من خلاله إلى واقعه وأحواله، ويوشحه بتأملاته وتجاربه؛ ليقدم للمتلقي خلاصة تجربة ثرية ارتبطت بماضيها، وانعكست على حاضرها.

وقد تجلت مرحلة الشباب في رباعيات المغربي بوصفها عنصرا من عناصر الصورة الكلية للعمر، التي اعتمد عليها الشاعر في الهروب من آلامه، والتسلي باستدعاء ماضيه وأحلامه، ونقل تجربته لشباب وطنه.

---

(١) المصدر السابق، ص٤٥.

(٢) رباعيات محمد علي مغربي، ص١٤٤.

**ثانيًا: مرحلة المشيب:**

احتلت مرحلة المشيب منزلة عليا عند الشاعر محمد مغربي، والمتأمل لشعره يجده يربط المشيب بالشباب في مواضع متعددة؛ شوقًا للشباب وذكرياته، وإكبارا للمشيب وسماته، وهو في ذلك يحاول إيجاد مقارنة تقوم على فكرة مفادها أن لكل مرحلة زمنية سماتها التي تميزها عن غيرها، بشكل تكاملي يثري الإنسان في تجاربه، ويصل به إلى منزلة سامية، يستقر بها بعد مروره بمراحل وتجارب متعددة، منذ صباه وحتى مرحلة المشيب.

ولعل الشاعر قد جنح إلى هذه المعادلة تسلية لنفسه واعتذارا منها حين آل من قوة إلى ضعف، ومن نشاط إلى فتور، ومن صحبة إلى وحدة.

وقد ورد ذكر المشيب في رباعيات المغربي مقرونا بموضوعات متعددة، تشكل منها الحديث عن المشيب وما اتسم به من تهذيب النفس، وإثراء التجربة، وإكساب الإنسان خبرة وحكمة في جوانب الحياة المختلفة.

وكانت رؤية المغربي للمشيب تنبثق من شعور بالرضا، واندماج مع خصائصه التي أثرت في نفس الشاعر وفي صقل شخصيته وإثرائها، يقول في إحدى رباعياته(١):

**الحَمدُ للهِ لا شَـوقٌ ولا لَهَـفُ ... وَلا شُجُونٌ ولا وَجـدٌ ولا شَغَفُ**
**بانَ الشَّبابُ الذي كانت نَوازِعُهُ ... كشُعلَةِ النَّارِ بالأهواءِ تَرتَجِـفُ**
**وأصبَحَ العَقلُ مِيزانًا أرُوضُ بِهِ ... نَوازِعَ النَّفسِ أن تَطغَى فتَنجَرِفُ**
**لقَد رَضِيتُ مَشِيبي إذْ وَجَدتُ بِهِ ... سَكِينَةَ النَّفسِ إنَّ الشَّيبَ يُؤتَلَفُ**

إن هذه الحكمة التي خلص إليها الشاعر كانت نتيجة تجربة حقيقية عاشها؛ حيث كانت الصورة تشي بخوف الإنسان من بزوغ فجر المشيب؛ لأنه إلماح لغياب قريب، وبالتالي شعور الإنسان بوحشة هذه المرحلة، إلا أن الشاعر قد بدد هذه

(١) رباعيات محمد علي مغربي، ص١٦.

الصورة، واستعاض عنها بارتياحه للمشيب؛ حين وجد فيه راحة النفس وسكينتها، ورجاحة العقل واتقاده.

إن هذا الرضا الذي أوصل الشاعر حد التماهي مع مرحلة المشيب قد أكسبه ثقة في نفسه، وكأنه يعيش عمرا جديدا له أحلامه وتطلعاته وتحدياته، كما كان للشباب أحلامه وعقباتهـ[1]:

**تُسائِلُني وقَد ذَهَبَ الشَّبابُ أَراضٍ أنتَ مُذْ رَحَلَ الشَّبابُ؟**
**رَضِيتُ بِشَيبَتي وهُدوءِ نَفسي فليسَ لما مَضَى مِنا إيابُ**
**وقَد عِشتُ الشَّبابَ حَياةَ جِدٍّ صِعاب لا تُدانِيها صِعابُ**

كما وجد الشاعر في المشيب سموا ورفعة، فيه كمال العقل ورجاحته، ومعرفة الطريق ومسالكه، كل ذلك زاده همة وعزما في المضي قدما، متسلحا بالحكمة والتجربة، دون تأثر بانقضاء الشباب[2]:

**لَستُ آسَى على شَبابٍ تَولَّى أنا في شَيبَتي أعَزُّ مَحَلَّا**
**هَدَأتْ فَورَتي وأشْرَقَ عَقلِي وَخَبِرتُ الدُّروبَ وَعرًا وَسَهلا**
**لَمْ تَهِنْ هِمَّتي ولا كَلَّ عَزمِي بَيدَ أنِّي مَشَيتُ هَونًا وَمَهلا**
**وَتَنَاءيتُ عن جَهُولٍ وَفَدمٍ وَتَخِذتُ اليَراعَ والطِّرسَ خِلَّا**

وقد كان لهذه المرحلة العمرية أثر كبير في إثراء تجاربه، وتنمية خبرته بالدنيا وأحوالها، وقد ظهر ذلك جليا في نزعته إلى الحكمة التي برزت في عدد من رباعياته[3]:

**لا تَقُولوا كَبِرَ الشَّيخُ فلا رأيَ لَهُ إنَّه سِفرُ تَجارِبِ السِّنينْ**
**شاهَدَ الدُّنيا علَى أوجُهِها تارَةً تَقسُو وأحيانًا تَلِينْ**

---

(١) المصدر السابق، ص٢٢٣.

(٢) رباعيات محمد علي مغربي، ص١٢٧.

(٣) المصدر السابق، ص٤٩.

**أَخَذَ العِبــرَةَ مــن أحوالها فأفادَ العِلمَ والــرَّأيَ الرَّزينْ**

**زادَهُ الشَّيبُ وَقــارًا وَسَنى إنَّما الشَّيبُ بَهاءُ النَّاظِرِينْ**

وقد رأى المغربي في تقدم الزمن ترقيا في خصائص النفس البشرية؛ حيث أصبحت مهذبة ونائية عن سفاسف الأمور، ساعية إلى بلوغ منزلة عالية في المجد والرفعة، وكل ذلك مما اكتسبه من تجاربه في الحياة، وانعكس إيجابا على طبائعه وشخصيته(١):

**قالوا كَبِرتَ فقُلتُ عن تِلكَ الصَّغائِرْ**

**قالوا وَشِبتَ فقُلتُ في طَلَبِ المَآثِرْ**

**قالوا بَعُدتَ فقُلتُ عن لَغــوٍ وَهاذِرْ**

**قالوا سَكَتَّ فقُلتُ عن جَدَلِ المُكابِرْ**

كما وجد المغربي في الشيب واعظا ومُذكِّرًا بدنو الأجل، ومعتبَرا لمن رام التوبة عن الآثام والخطايا التي اقترفها في سِنيِّ حياته، يقول في إحدى رباعياته(٢):

**وَقَد بَدا الشَّيبُ في فودَيَّ مُشتَعِلًا وفِيــهِ مُعتَبَــرٌ إنْ كُنتُ أعتَبِــرُ**

**يا رَبِّ تَوبَـــةَ عَبدٍ طَامِــعٍ أَبَـدًا في حُسنِ عفوِكَ للإحسانِ يَفتَقِرُ**

ويظهر للمتأمل مدى تأثر الشاعر بهذه المرحلة العمرية التي تماهى معها، وأصبحت عنصرا رئيسا من عناصر تشكيل شخصيته، واصطبغت بها تجربته الشعرية.

ومن هنا فإن ثنائية الشباب والمشيب تُعد من أبرز المكونات التي تشكلت منها ثيمة العمر في رباعيات المغربي، وارتطبت بموضوعات جزئية متعددة كوَّنت صورة عامة لهذه الثنائية، كما يظهر تعلق الشاعر بمرحلة الشباب، وتصالحه مع المشيب من خلال الاختلاف الزمني بين هذه الرباعيات؛ حيث نظم أشعاره في سنين متفرقة، يعود فيها لتلك الموضوعات ويطرقها من جانب مختلف.

---

(١) المصدر السابق، ص٧.

(٢) رباعيات محمد علي مغربي، ص١٤.

## المبحث الثاني:

## الزمن وانقضاء العمر

يتجلى حضور الزمن في رباعيات محمد مغربي ويرتبط ارتباطا وثيقا بالعمر؛ وذلك بتوظيفه في الشكوى من سرعة مضي الزمن وانقضائه، وتعاقب السنين التي تمثل زيادة في العمر ونقصا منه على حد سواء.

والمتأمل في رباعيات المغربي يلمح تشكُّل العمر في عدة موضوعات جزئية، تكشف عن رؤية المغربي للعمر، ورصده لسرعة الزمن ومدى تأثيرها في سير حياة الإنسان، وإحساسه بتقدم العمر ودنو الأجل.

**أولًا: قيمة العمر:**

وكانت رؤية المغربي للعمر نابعة من إحساسه بقيمته، وأن ما مضى منه لا يمكن أن يعود، وبذلك يتحقق وجوب اغتنام أوقات القوة والنشاط لإنجاز الأهداف، والمضي قدما للعمل على تحقيق الأحلام، ومن ذلك تأكيده على قيمة العمر التي تمثل أغلى ما يتحقق للإنسان، فلا بد من الحفاظ عليه من أن يضيع سدى[1]:

**العُمــرُ أثمَنُ ما مَلَكتَ فكُنْ لَهُ ... مِثلَ الحَرِيصِ علـى عَزِيزِ المَالِ**

**لا تُفنِهِ هدرًا فإنّـــكَ فاقِـــدٌ ... ما لا يُعَـوَّضُ مِن نَفِيــسِ لآلِ**

**لا تأسَ إن ضاعَتْ عليكَ مَرابِحٌ ... ما فاتَ يُـدرَكُ في زَمانٍ تـــالِ**

**لكنَّ عُمرَكَ لا يُعوَّضُ فاقضِـــهِ ... في فِعلِ ما يُرجى لحُســنِ مَآلِ**

وفي رباعية أخرى يستمر الشاعر في بيان قيمة العمر وارتباطه بالزمن وسرعة انقضائه، متخذا من التجربة مرجعية يستند إليها، يقول فيها[2]:

**رأيتُ العُمرَ مِثلَ الكُتبِ تُطـوى ... صَحائِفُــهُ بأيَّـــامِ الزَّمـــانِ**

**صَحائِفُ أُحصِيَتْ فيها خُطانا ... فإنَّ العُمرَ يُحصَى بالثَّوانـي**

---

(١) رباعيات محمد علي مغربي، ص٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص٨٨.

**ونحنُ الرَّاكضونَ بكُلِّ فَـــجٍّ وَنأسَى إنْ تَباعَدَت الأماني**

**وَنَنسى أيَّ عُمرٍ قَد أضَعنا بلا جَدوى وَهل للعُمرِ ثاني؟**

وقد ظلت هذه الفكرة مؤرقة للشاعر، ومترددة على أبياته في مواضع متعددة من رباعياته على اختلاف السنوات التي نُظمت فيها الرباعيات؛ فها هو يعود مجددا إلى سرعة انقضاء العمر، والتحذير من التفريط فيه(١):

**هيَ الأعمارُ تُحصَى بالثَّواني وَقَد مَرَّت كما مَرَّ الغَمامُ**

**وَأثمَنُ ما مَلَكتَ العُمرَ صُنْهُ فإن بَدَّدتَـــهُ أنتَ المُلامُ**

**ثانيًا: مرور الزمن:**

لقد كان مستوى حضور الزمن لدى المغربي يمثل عنصرا رئيسا من عناصر تشكيل ثيمة العمر، مؤكدا على حقيقة الزمن المتسم بسرعة الانقضاء والتبدل، وحمل العمر في طياته، وبذلك فإن العمر قصير وإن بدا طوله، ومنقضٍ وإن ظهر للإنسان بطؤه.

ويرى المغربي أن الناس في تعاطيهم مع الزمن وتكيّفهم مع أحواله قد تغاضوا عن مروره وانقضائه، حتى أضحى حالهم معه كمن يعتقد بديمومة الزمن وعدم انقضائه، ومن ذلك حديثه عن أحوال الناس واندماجهم مع الزمن(٢):

**إنِّي أرَى النَّاسَ في حالٍ مع الزَّمنِ مَن كانَ في فَرحٍ أو كان في حَزَنِ**

**هذا يَرَى الوقتَ يَمضِي مِثلَ بارِقَةٍ وذاكَ يَحسَبُهُ يَمشي على وَهَـــنِ**

**إنْ يُسرِعِ الوقتُ أو يُبطِئ فإنَّ بِهِ بَعضًا مِن العُمرِ قد ولَّى مع الزَّمنِ**

ينظر المغربي إلى العمر نظرة متداولة لدى الناس، تقوم على حكمة مفادها أن الزيادة في العمر نقص منه، وهي فكرة تقليدية يتداولها عامة الناس، إلا أن الشاعر

---

(١) رباعيات محمد علي مغربي، ص١٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص٩.

يرى أن السعي في هذه الدنيا مهما كان مربحا فهو خسارة أخرى يخسرها الإنسان بانقضاء عمره دون أن يشعر، يقول المغربي في ذلك[١]:

**يَمضي الزَّمانُ ويَقصُرُ العُمرُ والنَّاسُ لا يَدرون ما الخَبَرُ**
**يتزاحمون وكُلُّهـــم عَجِلٌ للوِردِ مِنـهُ الصَّفــوُ والكَدَرُ**
**أما الأُلى رَبِحوا فقد خَسِروا ما لا يُعَـوَّضُ إنَّــهُ العُمُرُ**

وفي موضع آخر يتناول المغربي موضوع الزمن ويجعله مرادفا للعمر، فالزمن هو العمر، بطوله وقصره وسرعة انقضائه، وبالكيفية التي يتعامل فيها الإنسان مع الزمن فإنه يتعامل مع العمر، في استثماره واغتنامه، أو إهماله وضياعه[٢]:

**خَيرُ ما تَملِكُ وقتَكْ لا تُضَيِّعــهُ فَتَهلَكْ**
**لا تُمَزِّقــهُ هَبـــاءً إنَّهُ عُمــرُكَ وحدَكْ**

وقد سار المغربي على منوال الشعراء القدماء الذين أنشدوا الأشعار في عمر الثمانين، فمنذ أن هبت نسائم الشعر في عصوره القديمة وصل حديث زهير عن الثمانين في بيته الشهر[٣]:

**سَئِمتُ تَكالِيفَ الحَياةِ ومَن يَعِش ثَمانِيــنَ حَولًا لا أبَا لَكَ يَسأمِ**

وكان عمر الثمانين يمثل هاجسا للشعراء؛ ففيه تذكير لهم بانقضاء العمر، وأن ما بقي من العمر أقله، وهذا ما نجده في رباعيات المغربي الذي استذكر نهاية العمر عند بلوغ الثمانين، ووجد في تقدم العمر طريق إياب وعودة من الحياة[٤]:

**إنَّ الثَّمانيــنَ وما بَعدَهــا قَد أنذَرَتْ عُمري بطَيِّ الكِتابْ**
**والمرءُ لا يَدري مَدَى عُمرِهِ لكنَّما الشَّيــبُ طَريقُ الإيـابْ**

---

(١) رباعيات محمد علي مغربي، ص١٣٩.

(٢) المصدر السابق ، ص٣٤.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح حمدوطماس، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط٢، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص٧٠.

(٤) رباعيات محمد علي مغربي، ص٢٤٥.

إلا أن المغربي في حديثه عن الثمانين ينظر إليها من منظور سرعة الانقضاء، فلولا ظهور الشيب وغياب الأحبة والصحاب لما أدرك أن العمر قد انقضى، وآل إلى أواخر العمر(١):

**إنَّ الثَّمانيــنَ علــى طُولِهــا ... مَرَّت على عُمري كَمَرِّ السَّحابْ**
**لولا اشتِعالُ الشَّيبِ في هامَتي ... وَمَن تَوارَى مِن كَرِيمِ الصِّحــابْ**
**ما خِلتُ أنَّ العُمــرَ ولَّى بِنا ... وَغابَ عَنَّا عَهدُ الهَوى والشَّبابْ**
**ما أقصرَ العُمــرَ على طُولِـهِ ... وأشبَهَ الدُّنيــا بِلَمــعِ السَّــرابْ**

**ثالثًا: دنو الأجل:**

تُلحُّ فكرة انقضاء العمر ودنو الأجل على الشعراء الذين اعتراهم الضعف نتيجة لتقدم العمر، وكثيرا ما تقترن تلك الفكرة بتذكر مراحل الصبا والشباب، وما فيها من ذكريات جميلة، أو غوايات تنحا بهم إلى تذكر الرحيل والتوبة عن خطاياهم.

ومع كثرة حديث المغربي عن العمر إلا أنه لم يكن منهمكا في ذكرياته السيئة، أو معرِّضا بخطايا العمر إلا ما ورد مقرونا بالتوبة والاستغفار، وذلك في مواضع محدودة في رباعياته.

ولعل هذه القلة في حديثه عن دنو الأجل تأتي متسقة وروح التفاؤل التي ظهرت في أشعاره؛ فلم يكن المغربي شاكيا متشائما من حياته، ولم تكن رحلة العمر إلا رحلة عمل وكفاح، كل يوم يدنيه من الأجل يزيد في عزمه وهمَّته(٢):

**كُلَّما مَــرَّ مِــن حيــاتيَ عــامٌ ... زادَ ظَنِّـــي بأنَّنــي فــي النِّهايــةْ**
**الدُّروبُ التي سَلَكــــتُ تَنَاءتْ ... لَـم يَعُد لي إلا طَريقُ الهِـــدايةْ**
**والرِّجالُ الأُلى عَرَفــــتُ تَهاوَوا ... صارَ ماضي الرِّجالِ عندي حِكايةْ**
**إن وَهَـتْ قُوَّتي فما فُلَّ عَزمي ... إنَّ للهِ فــي العَزائِــمِ آيـــــــةْ**

(١) المصدر السابق، ص١٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص٢١٣.

إن الروح المتَّقدة همة وعزيمة قد رافقت الشاعر من عهود الصبا والشباب، ولازمته في مشيبه، وظلَّت تمده بالأمل في أواخر حياته[1]:

**إنِّي لأشعرُ والسِّنينُ تَمُرُّ بي أنَّ الكتابَ تَكامَلَت صَفحاتُهُ**

**... لكنَّني أحيا حَياتي كُلَّها والمرءُ يَسعى ما تَدومُ حَياتُهُ**

ويمكن أن يلمح المتأمل في حديث المغربي عن مرور الزمان، واقتراب الأجل ما يشي برثاء النفس، فالحديث عن المشيب وتبدل الحال، واستذكار الشباب وأحداثه، والإعراض عن ملذات الدنيا، والعزلة، والتوبة عن خطايا الشباب، وتصوير ضعف المشيب بأنه رحلة إياب، كل ذلك مما يدفع للقول بأنه يعد رثاء مضمرا للنفس.

وهكذا تبرز ثيمة العمر في عنصر الزمن وسرعة انقضائه، ودنو الأجل، مطرزة برؤية الشاعر عن قيمة العمر، وأهمية استثماره واغتنامه، والسير بثبات نحو تحقيق الآمال بهمة وعزيمة لا تلين، مهما تقدم الإنسان في عمره؛ فالحياة واحدة، أولها كآخرها.

* *

(١) رباعيات محمد علي مغربي، ص١٦٧.

## المبحث الثالث:

## الحكمة

جاءت الحكمة في رباعيات المغربي نتيجة التجربة الطويلة التي عاشها، والأحداث التي مرَّ بها فاصطبغت بها شخصيته، وأفادت منها ثقافته، ولعلها –أي الحكمة– من أبرز الموضوعات التي تميزت بها رباعيات المغربي، ووظفها في تأملاته ورؤاه.

ويظهر من خلال الحكمة وموضوعاتها نزعتها للتأثر بالعمر، بشكل مباشر وغير مباشر؛ فهذه الحكمة كانت نتيجة تجربة حقيقية عاشها الشاعر وتأثر بها، فارتبطت بسني عمره، وجاءت حاملة تأملات في الحياة والعمر، أسهمت في رسم صورة جزئية لثيمة العمر التي نحن بصدد تجليتها، وإبراز مظاهرها.

إن التجارب التي هذَّبت الشاعر، وصقلت شخصيته، نأت به عما لا يليق به قدرا وعمرا؛ فاتخذ الكتاب جليسه، واستمر في عزلة عن الأحداث الاجتماعية التي هو في غنى عنها، وكان ذلك من آثار خبرته بالحياة، والتأمل في حقيقتها[1]:

**تَجَنَّبتُ المجالِسَ والصِّحابا وآثرتُ المحابـرَ والكِتابـــا**
**وباعدتُ المحافِلَ والنَّوادي فلَستُ بها أُحابي أو أُحابى**
**رَأيتُ العُمرَ تُحصيهِ الليالي فلـم أُنفِقـهُ لَغـوًا أو لِعابا**

ويستمر المغربي في تقديم خلاصة تجربته في الدنيا، ويكشف قدرها، واغترار الناس بظاهرها دون علمهم بما تخفيه في طياتها[2]:

**لَعَمرُكَ إنهـا الأنفـاسُ تَترى مُقَدَّرةٌ فـلا تَجتـازُ قَـــــدرا**
**تَمُرُّ ولسـتَ تَدري ما مَداها وَيَمضي مُـرُّها يومًا وشَهرا**
**فإن كُنـتَ الأرِيبَ صَنَعتَ خيرًا وإن كنتَ السَّفيهَ أضَعتَ عُمرا**

---

(١) المصدر السابق، ص١٧٧.

(٢) رباعيات محمد علي مغربي ، ص٢٥٤.

وكانت الحياة حاضرة في تأملات المغربي، بكل جمالها وفتنتها وحيويتها وألقها، وبكل ما تحمله في باطنها من آلام وهموم، فمن نظر إلى ظاهرها رأى نورها، ومن سبر أغوارها ذاق من مرارتها.

وكانت هذه التأملات تنبئ عن حكمة تكونها، وتجربة عميقة تتوشح بها، وشخصية خبيرة بالدهر وصروفه، ومظاهره وبواطنه، يقول المغربي في رباعيته[1]:

**رَأيتُهـا دارَةً بالنُّـــورِ تَأتلِــقُ يَحُفُّها الزَّهرُ ألوانًا لها عَبَــقُ**

**وزَيَّنَتهـــا يَــدٌ بالفَـــنِّ حاذِقَـةٌ فالحُسنُ مُجتَمِعٌ فيها ومُفتَرِقُ**

**ما أهنأ العَيشَ فيها لو سَلِمتَ بها مِن الهُمُومِ ومما يَصنعُ القَلَقُ**

**هيَ الحَيـاةُ وإن زانَــتْ مَظاهِرُها فبَيــنَ أبرادِها الآلامُ والفَـرَقُ**

إن الحياة بكل ما فيها من خير وشر، ماضية إلى الزوال، تحمل سرها بين طياتها، لا ينال المرء منها إلا ما قُدِّر له، وهي بذلك حاملة عمر الإنسان، يستمر دوران أيامها لينقضي به العمر، يقول المغربي[2]:

**تَمضي الحَياةُ بِحُلوِها وبمُرِّها وَتَظَلُ طَيَّ الغَيبِ تَحمِلُ سِرَّها**

**مَوصولَةَ الحَركاتِ في دَورانِها وقِيادُها رَهنٌ بصاحِبِ أمرِها**

**فإذا بُليتَ بصابِها أو شهدِهـا ما ضَرَّها ما نِلتَ أو ما سَرَّها**

إن الحكمة عندما ارتبطت بحقيقة الدنيا وجريانها، وانقضاء العمر بانقضاء أيامها، وما تلقي به على الإنسان من أحداث في مراحل حياته، كل ذلك جعلها عنصرا من عناصر ثيمة العمر التي برزت في رباعيات محمد مغربي.

---

(١) المصدر السابق، ص٢١.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥١.

## المبحث الرابع:
## مظاهر فنية

برزت في رباعيات محمد مغربي بعض الظواهر الفنية التي ارتبطت بالعمر بوصفة فضاءً موضوعيا، وأسهمت في إثراء عناصر الموضوعات المختلفة، ومن ذلك ما يأتي:

**أولًا: التكرار:**

يعد التكرار أحد "الوسائل اللغوية التي يمكن أن تؤدي في القصيدة دورا تعبيريا واضحا، فتكرار لفظة ما أو عبارة ما يوحي بشكل أولي بسيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه في فكر الشاعر أو شعوره أو لا شعوره"(١)، ويبرهن على علوقه في نفس الشاعر، للدرجة التي أصبح ذكره بصورة مباشرة أبلغ من تعويضه بالضمائر.

ويأتي التكرار ركنا رئيسا في المقاربة الموضوعاتية؛ حيث تسعى المقاربة الموضوعاتية إلى إيجاد الجوانب المشتركة والمكررة في العمل الأدبي، لتصبح نسيجا واحدا مكونا للفضاء الموضوعي للأديب، فتأتي الموضوعات "على شكل شبكة من الدلالات، أو عنصر دلالي متكرر لدى كاتب ما في عمل ما"(٢).

وفي هذا الجزء من الدراسة أود تسليط الضوء على التكرار الفني الذي ضمته ثيمة العمر في رباعيات المغربي، ويمثل ظاهرة بارزة في شعره؛ بتعدد طرقه واتجاهاته، وذلك كما يأتي:

---

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د. عشري زايد، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط٤، ١٤٢٣هـ، ص٥٨.

(٢) التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، يوسف وغليسي، دار الريحانة، الجزائر، ص١٨ ، وينظر: الأنا والآخر في قصيدة قراءة في وجه لندن مقاربة موضوعاتية، أشجان هندي، مجلة جامعة الملك عبدالعزيز (الآداب والعلوم الإنسانية)، مج ٢٦، ع ٣، ٢٠١٨م، ص٢٩٨.

**تكرار الألفاظ:**

ويمثل هذا النوع من التكرار ظاهرة ملحوظة في رباعيات المغربي؛ فهو يعيد توظيف الألفاظ في عدد من أشطر الرباعية الواحدة، ويأتي ذلك لمعانٍ عدة ارتبطت بنفسية الشاعر وتجربته الشعرية، ومن ذلك تكراره لكلمة (العمر) في مواضع متفرقة؛ حيث مثَّلت هذه الكلمة عنوانا بارزا تدور حوله أفكاره المبثوثة في ثنايا رباعياته، ويلحظ المتأمل أن كلمة (العمر) لديه غالبا ما ترتبط بفكرة انقضائه وسرعة جريانه، ومن ذلك قوله(١):

**رأيتُ العُمرَ مِثلَ الكُتبِ تُطوى صَحائِفُــهُ بأيَّـــامِ الزَّمــانِ**
**صَحائِفُ أُحصِيَتْ فيها خُطانا فإنَّ العُمرَ يُحصَى بالثَّوانـي**
**... وَنَنسى أيَّ عُمرٍ قَد أضَعنا بلا جَدوى وَهل للعُمرِ ثاني؟**

كما يأتي تكرار كلمة (الشباب) في عدد من رباعياته؛ ولعل تعلقه بتلك المرحلة العمرية، وما فيها من أحلام وأحداث يفسر هذا التكرار الظاهر،ومن ذلك قوله(٢):

**شَبابُـكَ كَنــزٌ فاغْتَنِمـــهُ غِناءَ وَوقْتُـكَ عُمــرٌ لا تُضِعهُ هَباءَ**
**وَلا تَقـضِ أيَّامَ الشَّبـابِ تَبَلُّـــدا وَزِنها بِمــا تَرقَـــى بِهِ العَلياءَ**
**وَخُذْ مِنْ شَبابِ العُمرِ للشَّيبِ عِدَّةً فإنَّكَ تَلقَــى ما صَنَعــتَ جَزاءَ**

ويقول في رباعية أخرى(٣):

**ذِكرياتُ الشَّبابِ طَافَت بذِهني بعدَ ما ضاعَ مِن حياتي الشَّبابُ**

كما جاء تكرار كلمتي (الزمن/الوقت) في رباعيات أخرى، مرتبطا برؤية الشاعر للعمر، والحكمة التي تمخضت عنها تجربته الخاصة، ومؤكدا لفكرة انقضاء الزمن وسرعته(٤):

**إنِّي أرَى النَّاسَ في حالٍ مع الزَّمنِ مَن كانَ في فَرحٍ أو كان في حَزَنِ**

---

(١) رباعيات محمد علي مغربي، ص٨٨
(٢) رباعيات محمد علي مغربي، ص٤٥
(٣) المصدر السابق، ص٢٢
(٤) المصدر السابق، ص٩.

**هذا يَرَى الوقتَ يَمضِي مِثلَ بارِقَةٍ وذاكَ يَحسَبُهُ يَمشي على وَهَـــنِ**

**إنْ يُسرِعِ الوقتُ أو يُبطِئ فإنَّ بِهِ بَعضًا مِن العُمرِ قد ولَّى مع الزَّمنِ**

إن معاودة لفظة (العمر) في رباعيات المغربي تشي بقوة حضورها في ذهنه، وتأثيرها في ترجمة أفكاره؛ إذ يجدها أمامه في كل ذكرى، وفي كل رؤية وأمل؛ فالعمر هو ما كان، وهو ما سيأتي، وكل ما حصل أو سيحصل مرتهن بالعمر، وبانقضائه تنقضي الأحداث، ماضيها وقادمها.

**تكرار الأفكار:**

يلحظ المتأمل في ثيمة العمر في رباعيات المغربي تكرار بعض الأفكار والمعاني في عدد من المواضع، وكأنها تلح عليه مرارا ليعاود طرحها، كتكراره لمعاني العزلة، واتخاذ الكتب رفاقا في مشيبه، مكررة الدلالات ذاتها في كل موضع، ومحملة بمشاعره وأحزانه، ومن ذلك قوله[1]:

**ذِكرَياتُ الشَّبابِ طافَتْ بذِهنـي بعدما ضاعَ مِن حياتي الشَّبابُ**

**الرِّفاقُ الكِرامُ غابوا عـن العَيـ ـنِ كما غَيَّبَ النُّجومَ السَّحـــابُ**

**والمغاني التي أَلِفتُ تَنـــاءَتْ بَعُدَ العَهدُ مُذْ مَضَى الأحبـــابُ**

**صَارت الكُتـبُ واليَراعُ جَلِيسـي وَرَفِيقـي إذا دَعانـــي اغتِرابُ**

ويقول في رباعية أخرى[2]:

**بَعدَ ما وَلَّى شَبابِي وَمَضَى جُلُّ صِحابِي**

**صِرتُ للكُتْبِ أخا رفـ ـقة صِدقٍ لا تُحابِي**

ويأتي هذا التكرار مرتبطا بحديثه عن مراحل العمر، ومقارنته بين حاله في شبابه ومشيبه.

---

(١) المصدر السابق، ص٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص١٠.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن التكرار يعد ركنا أساسيا في المقاربة الموضوعاتية التي تعتمد على إيجاد العلاقة بين النصوص في موضوع واحد، إلا أن معنى العزلة كان يُلح على الشاعر في ثنايا موضوعات العمر المختلفة، بوصفها مظهرا من مظاهر التحول بين مراحله العمرية.

**تكرار الأساليب:**

تكررت بعض الأساليب في رباعيات المغربي، فتارة يتكرر أسلوب الاستفهام، وتارة أسلوب النداء، وأخرى أسلوب الحوار، وكان هذا التكرار معبرا عن شعور الشاعر، وإنكاره أو تعجبه، ومن ذلك حديثه عن الشِّعر، وكيف تجذبه غواياته بعد تقدمه في العمر، بعد أن كان يستعصي عليه في شبابه(١):

**مالي وَلِلشِّعرِ تُضنِينـــي نَوازِعُـــهُ وَتَحجبُ النَّومَ عن عَينِي وتُضوِيني**

**مالـــي وللشِّعرِ أشجانًـــا أُكابِدُها كأنَّهـــا وَهَجٌ بالشَّـــوقِ تَكوِينـــي**

**قَد كُنتُ والعُمرُ غَضٌّ والشَّبابُ هَوىً أُجاذِبُ الشِّعـرَ أردانًا فَيَلوِينـــي**

ولعل تكرار أسلوب الاستفهام في رباعيات المغربي يرتبط ارتباطا مباشرا بمضامين العمر؛ حيث يأتي في بعض المواضع مقرونا بالتعجب من سرعة انقضاء العمر، وتحول الشاعر إلى العزلة والهدوء بعدما كان مولعا بمغامرات الشباب، كما يأتي استنكارا على إضاعة العمر سدى، والانغماس في مطاردة الأوهام، ثم لا يلبث المرء أن يفيق وقد طويت صفحات عمره.

**ثانيًا: التناص:**

يمثل التناص إحدى التقنيات التي تستند إليها النصوص الأدبية في بناء أفكارها، ويعني "تضمن نص ما نصوصا أو أفكارًا أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة، أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب؛

(١) رباعيات محمد علي مغربي ، ص٩٦

بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي وتندغم فيه؛ ليتشكل نص جديد واحد متكامل"[١].

ويستقي الأديب أفكاره ومعانيه من موروثه، ويتعالق مع النصوص –الدينية والتاريخية والأدبية وغيرها– التي تشكَّل منها وعيه، وتبعا لها تتشكل منها أعماله الأدبية.

وقد ظهر التناص في رباعيات المغربي من خلال موضوع العمر، وجاء ذلك عن طريق التناص مع القرآن الكريم، ومع الشعر العربي؛ حيث بدا المغربي متأثرا ببعض الألفاظ والتعبيرات القرآنية، ومن ذلك تناصه مع الآية القرآنية "**واشتعل الرأس شيبا**"[٢] دلالة على التحول العمري من الشباب إلى المشيب، وسرعة هذا التحول الذي داهمه على غفلة منه، وافتتان برونق الحياة[٣]:

**وَقَد بَدا الشَّيبُ في فوديَّ مُشتَعِلاً وفيه مُعتَبَرٌ إن كنتُ أعتَبِرُ**

ويقول في موضع آخر[٤]:

**لولا اشتِعالُ الشَّيبِ في هامَتِي وَمَن تَوارَى مِن كَرِيمِ الصِّحابْ**
**ما خِلتُ أنَّ العُمرَ ولَّى بِنا وغابَ عنَّا عَهدُ الهَوى والشَّبابْ**

كما ظهر تناص المغربي مع الشعر العربي، وخاصة شعر المتنبي؛ حين استلهم فكرة إلف الشيب، والتكيف معه، في قوله[٥]:

**لقَد رَضِيتُ مَشيبي إذ وَجَدتُ بِهِ سَكِينةَ النَّفسِ إن الشَّيبَ يُؤتَلَفُ**

---

(١) التناص نظريا وتطبيقيا، أحمد الزعبي، مكتبة الكتاني، إربد–الأردن، ط١، ١٤١٥هـ–١٩٩٥م، ص٩.

(٢) سورة مريم، الآية رقم ٤.

(٣) رباعيات محمد علي مغربي، ص١٤.

(٤) رباعيات محمد علي مغربي، ص١٧٢.

(٥) المصدر السابق، ص١٦.

وهو تناص أدبي مع بيت المتنبي في معنى إلف الشيب، والرضا به[1]:

**خُلِقتُ ألُوفًا لو رَجَعتُ إلى الصِّبا لفارقتُ شَيبي مُوجَعَ القلبِ باكيا**

وقد ورد التناص في رباعيات المغربي في سياق حديثه عن موضوع الشيب ومرحلة المشيب، متخذا من الإرث الديني والأدبي مرجعية يحيل إليها، ويبني عليها أفكاره ومعانيه؛ لتأكيد المعنى، وتقريبه من ذهن المتلقي.

* *

(١) ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص٢٤٢.

## الخاتمة

تناولت هذه الدراسة موضوع (ثيمة العمر في رباعيات محمد مغربي – مقاربة موضوعاتية)، وسعت إلى بناء فضاء موضوعي للشاعر من خلال رباعياته؛ كاشفة عن القرائن الموضوعية التي تشكل منها فضاء العمر، وموضحة لأبرز مظاهره الفنية، وقد خلصت الدراسة إلى نتائج متعددة، كان من أبرزها:

- شكَّلت ثيمة العمر فضاءً موضوعيا لدى محمد مغربي في رباعياته، وتكوَّنت من عناصر متنوعة، صوَّرت مشاعره وآلامه، وكشفت عن رؤيته وتأملاته.
- وردت ثنائية الشيب والشباب في رباعيات المغربي بوصفها من المراحل العمرية التي ترددت في شعره، وظهر تعلقه بمرحلة الشباب تبعا لتعلقه بأحلامه، وارتباطه الوجداني بذاكرة المكان، وما عايشه فيه من آمال وتطلعات سعى لتحقيقها.
- كان لمرحلة المشيب حضورها البارز في رباعيات المغربي، مُمَثلة مرحلة النضج والتأمل، والعزلة عن المجتمع، مُكبِرًا للمشيب ما وسمه به من صفات الحكمة، وبدا الشاعر متصالحا مع هذه المرحلة باعتبارها محطة أخيرة في رحلة العمر.
- تجلى الزمن باعتباره المُسيِّر لرحلة العمر في مراحلها المختلفة، فهو الأساس الذي يسير العمر تبعا له، وبه تتشكل قيمة العمر؛ فارتبط به في الرباعيات موضحا سرعة مروره وانقضائه وتبدل أحواله.
- نتج عن طول تجربة الشاعر اتسامه بالحكمة، واصطبغت رباعياته بتأملاته، وأصبحت عنصرًا من عناصر ثيمة العمر؛ لما حملته من رؤية للحياة وأحوالها، ومظاهر تبدلها وسرعة انقضائها.
- اتسمت رباعيات المغربي العمرية ببعض المظاهر الفنية، وبرز من بينها التكرار الذي يمثل وسيلةً تعبيرية تنبئ عما يدور في نفس الشاعر من أفكار وموضوعات، تشكلت في وعيه وانعكست على نتاجه الأدبي.

-اتخذ التكرار عددا من الاتجاهات؛ حيث ورد تكرار بعض الألفاظ مثل (العمر والشباب والزمن والوقت)؛ دالاً على علوقها في نفس الشاعر واهتمامه بها، وجاءت مرتبطة بشكل مباشر مع موضوع انقضاء العمر وسرعة تبدل الزمن وجريانه.

-كما تكررت بعض الأفكار والمعاني التي حملتها ثيمة العمر، كالعزلة، وصحبة الكتب؛ في إشارة إلى ميل الشاعر إلى الهدوء الذي تتطلبه مرحلة المشيب، بعيدا عن ضوضاء الحياة، كما تنوعت أساليب الشاعر في عرض الأفكار وتناولها.

-ظهر التناص في رباعيات المغربي العمرية بوصفه تقنية يعتمد عليها الشاعر في بناء أفكاره؛ باعتبارها مرجعية تراثية يستقي منها معانيه، ويخرجها في قوالب لغوية خاصة به.

-كان التناص الديني مع القرآن الكريم، والتناص الأدبي مع شعر المتنبي يمثلان السمة البارزة في اسلتهام التراث؛ من خلال تعالق نصوصه مع بعض الآيات القرآنية، والأبيات الشعرية، التي عبَّرت عن أفكار الشاعر ومعانيه التي أوردها.

* *

## ثبت المصادر والمراجع


١- الحازمي، وليد بن خالد، **الرباعيات في الشعر السعودي** دراسة موضوعية فنية، دار جامعة الملك سعود للنشر، ١٤٣٥هـ.

٢- حسن، عبدالكريم، **المنهج الموضوعي النظرية والتطبيق**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

٣- حمداوي، جميل، **المقاربة النقدية الموضوعاتية**، دار الألوكة.

٤- دارة الملك عبدالعزيز، **قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية**، الرياض، ١٤٣٥هـ.

٥- روجي، جيروم، **النقد الأدبي**، ترجمة شكير نصر الدين، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠١٣م.

٦- زايد، عشري، **عن بناء القصيدة العربية الحديثة**، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط٤، ١٤٢٣هـ.

٧- الزعبي، أحمد، التناص نظريا وتطبيقيا، مكتبة الكتاني، إربد–الأردن، ط١، ١٤١٥هـ–١٩٩٥م.

٨- زمالي، نسيمة، **ثيمة الموت في القصة الشعرية العربية** مقاربة موضوعاتية، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، ع ٤٤، ٢٠١٨م.

٩- ابن أبي سلمى، زهير، **ديوان شعر**، شرح حمدوطماس، دار المعرفة، بيروت–لبنان، ط٢، ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.

١٠- عزام، محمد، **المنهج الموضوعي في النقد الأدبي**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩م.

١١- علوش، سعيد، **النقد الموضوعاتي**، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ط١، ١٩٨٩م.

١٢- لحمداني، حميد، **سحر الموضوع عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر**، مطبعة آنفو، فاس-المغرب، ط٢، ٢٠١٤م.

١٣- المتنبي، أبو الطيب، **ديوان شعر**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١٤- مجموعة من الباحثين، **موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث**، دار المفردات للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٥- مجموعة من الباحثين، **الموسوعة العربية العالمية**، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

١٦- مغربي، محمد علي، **رباعيات**، مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم)، جدة، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

١٧- هندي، أشجان، **الأنا والآخر في قصيدة قراءة في وجه لندنلغازي القصيبي** مقاربة موضوعاتية، مجلة جامعة الملك عبدالعزيز (الآداب والعلوم الإنسانية)، مج ٢٦، ع٣، ٢٠١٨م.

١٨- وغليسي، يوسف، **التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري**، دار الريحانة، الجزائر.

١٩- وهبة، مجدي، وكامل المهندس، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

* * *